

تفسير البحر المحيط

@ 297 أصحاب الفيل بالطير والحاصب الذي رمتهم به ، ففيه إذكرار قريش بهذه القصة ، وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير ، كما فعل بأصحاب الفيل . { صَافَّاتٍ } : باسطة أجنحتها صافتها حتى كأنها ساكنة ، { وَيَقْدِضْنَ } : ويضممن الأجنحة إلى جوانبهن ، وهاتان حالتان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى . وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ، ومثله قوله تعالى : { فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * وَأَثَرْنَ } ، عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى : فاللاتي أغرن صباحاً فأثرن ، ومثل هذا العطف فصيح ، وعكسه أيضاً جائز إلا عند السهيلي فإنه قبيح ، نحو قوله : % (بات يغشيها بغضب باتر % . يقصد في أسوقها وجائر .) % .

أي : فاصد في أسوقها وجائر . وقال الزمخشري : { صَافَّاتٍ } : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ، { وَيَقْدِضْنَ } : ويضمنها إذا ضربن بها جنوبهن . فإن قلت : لم قيل { وَيَقْدِضْنَ } ، ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح . انتهى . وملخصه أن الغالب هو البسط ، فكأنه هو الثابت ، فعبر عنه بالاسم . والقبض متجدد ، فعبر عنه بالفعل ب { مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَانُ } : أي بقدرته . قال الزمخشري : وبما دبر لهن من القوادم والخوافي ، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد يأتي منها الجري في الجو { إِنْزَاهُ بِرَكُلٍ شَدِيدٍ بَصِيرٌ } : يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب . انتهى ، وفيه نزوع إلى قول أهل الطبيعة . ونحن نقول : إن أثقل الأشياء إذا أراد إمساكها في الهواء واستعلاءها إلى العرش كان ذلك ، وإذا أراد إنزال ما هو أخف سفلاً إلى منتهى ما ينزل كان ، وليس ذلك معذوقاً بشكل ، لا من ثقل ولا خفة . وقرأ الجمهور : ما يمسكهن مخففاً . والزهري مشدداً . وقرأ الجمهور : { مِنْ } ، بإدغام ميم أم في ميم من ، إذ الأصل أم من ، وأم هنا بمعنى بل خاصة لأن الذي بعدها هو اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء ، وهذا خبر ، والمعنى : من هو ناصركم إن ابتلاكم بعذابه ؛ وكذلك من هو رازقكم أن أمسك رزقه ، والمعنى : لا أحد ينصركم ولا يرزقكم . وقرأ طلحة :

أمن بتخفيف الميم ونقلها إلى الثانية كالجماعة . قال صاحب اللوامح : ومعناه : أهدا
الذي هو جند لكم ينصركم ، أم الذي يرزقكم ؟ فلفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه التقرير
والتوبيخ . انتهى . { يَلِّ لَّجَّوًّا } : تمادوا ، { فِي عْتُوًّا } : في تكبر وعناد ،
{ وَنُفُورٍ } : شراد عن الحق لثقله عليهم . وقيل : هذا إشارة إلى أصنامهم . .
{ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ } ، قال قتادة نزلت مخبرة عن حال
القيامة ، وأن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة . وقيل
للنبي صلى الله عليه وسلم) : كيف يمشى الكافر على وجهه ؟ فقال : (إن الذي أمشاه في
الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه) . فالمشي على قول قتادة حقيقة .
وقيل : هو مجاز ، ضرب مثلاً للكافر والمؤمن في الدنيا . فقيل : عام ، وهو قول ابن عباس
ومجاهد والضحاك ، نزلت فيهما . وقال ابن عباس أيضاً : نزلت في أبي جهل والرسول عليه
الصلاة والسلام . وقيل : في أبي جهل وحمزة ، والمعنى أن الكافر في اضطرابه وتعسفه في
عقيدته وتشابه الأمر عليه ، كالماضي في انخفاض وارتفاع ، كالأعمى يتعثر كل ساعة فيخر
لوجهه . وأما المؤمن ، فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان ، وكونه قد وضح له الحق ، كالماشي
صحيح البصر مستويًا لا ينحرف على طريق واضح الاستقامة لا حزون فيها ، فآلة نظره صحيحة
ومسلكه لا صعوبة فيه . و { مُكِبًّا } : حال من أكب ، وهو لا يتعدى ، وكب متعد ، قال
تعالى : { فَكُذِّبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ، والهمزة فيه للدخول في الشيء أو
للصيرورة ، ومطاوع كب انكب ، تقول : كبته فانكب . وقال الزمخشري : ولا